سياسته

إذا قلنا أن غاندى لم يكن سياسياً فنحن لا نريد بذلك أنه كان دون السياسيين فى ملكات عقله ، ولا أنه كان مفتقراً إلى الدهاء الذى تقوم عليه السياسة . فإنه لم يكن خلواً من الدهاء ، ولم يكن مقصراً عن الساسة فى ملكات العقل والسليقة . ولكنه لم يكن سياسياً لأنه كان يعمل فى سياسة قومه بأسلوب غير أساليب الساسة ، بل غير أساليب الدعاة الشعبيين فى أكثر الأحيان .

كان يعمل فى السياسة بأساليب القديسين .

وكانت « الاهمسا » أو المقاومة السلبية رأس ماله فى كل خطة يواجه بها قومه ، أو يواجه بها الدولة البريطانية ، أو يواجه بها كائناً من كان ممن يخشى منهم خطر على بلاده .

كان الخطر اليابانى محدقاً بالهند بعد جلاء الجيوش البريطانية عن سنغافورة وبرما وبلاد الملايو فى إبان الحرب العالمية الثانية ، وكان هو يعلن الإنجليز بوجوب الجلاء عن جميع البلاد الهندية قبل توقف القتال ، فلما سأله مراسلو الصحف الأجنبية عن الخطر اليابانى قال : إننا نواجه هذا

الخطر بالمقاومة السلبية ، كما واجهنا به سلطان الدولة البريطانية . ولم يكن هذا رأى نهرو وزملائه من أصحاب الرأى فى المؤتمر الهندى ، لأنهم كانوا على استعداد لمواجهة الخطر الياباني بالمقاومة العسكرية ، وكانوا على استعداد للموافقة على إبقاء فرق من جيوش الحلفاء فى الهند للاشتراك فى الدفاع عنها . ولم يرفض غاندى كل الرفض أن تبقى الجيوش لهذا الغرض دون غيره . ولكنه كان يؤمن بالمقاومة السلبية فوق إيمانه بالقوة العسكرية . وكان يقول لأبناء وطنه وللأجانب المتحدثين إليه : « إننى أومن ـ سواء صدق الناس أو لم يصدقوا ـ أنه كلما كان العمل عملا من أعمال ترك العنف أو المقاومة السلبية فالعامل الحاسم فى هذا الموقف ، هو الله » .

فإذا أغار اليابانيون على الهند فكل ما يطلب من أهلها لدفع خطرهم هو الكف عن مقابلة العنف بالعنف والكف عن التعاون معهم فى حكم البلاد ، وهذه ـ فى رأى غاندى ـ مقاومة كافية لتحقيق الغرض منها ، وهو قل سلاح العدوان وتعويق المعتدى عن بلوغ مقصده من عدوانه . فإن بقى بعد ذلك عمل لازم لتكبح جماح المعتدى فما بقى بعد ذلك فهو من عمل الله .

ومتى كانت « الاهمسا » هى رائد السياسى فى مقاومته

فلا عليه أن يحدث من جرائها ماعسى أن يحدث من شدة وضرر. فإنما الحرام هو إيقاع الضرر عمداً وإيقاعه من طريق العنف والسورة الغضبية. فإذا جاء الضرر من غير هذه الطريق فلا جناح عليه ولاحيلة له فى منعه ، لأنه لايستطيع أن يمنعه لو شاء.

زار البلاد الانجليزية للتشاور فى القضية الهندية، فأخذوه إلى مساكن العمال المتعطلين وأشهدوه ما فيها من بؤس وفاقة ، وأحبوا أن يقنعوه من حيث يقتنع إذ طرقوا فكره من باب الرحمة والتورع عن إيذاء الأبرياء. فقالوا له : إن هذا البؤس الذى يراه أثر من آثار سياسته التى يدعو إليها ، وهى مقاطعة البضائع الانجليزية وتعويل أهل الهند على ما يصنعونه بأيديهم من الكساء ومطالب المعيشة.

فبدا عليه أسف شديد ، ولكنه قال أنه لا يستطيع أن يعدل عن دعوته ، وأن فى الهند من ألوان البؤس والفاقة ماهو أنكأ للنفس مما رآه.

ولم يكن هذا الاصرار عجيباً من قديس الرحمة والمحبة بين الناس. فإنما كان شأنه فى هذا كشأن الطبيب الذى ينهى الناس عن التخمة والإفراط فى المآكل. فلا يلام إذا كان فى اتباع الناس لنصيحته خسارة على المطاعم أو الصيدليات ،

ولا يطلب منه أن يسكت عن محاربة التخمة والافراط لأن أناساً يستفيدون إذا تخم الناس ويخسرون إذا أخذوا بالحيسة والاعتدال .

° ° °

وقد قيل له مرة : لماذا يفرغ جهده فى المطالبة باستقلال الهند ولا يفرغ هذا الجهد فيما هو أعظم من ذلك وأكمل : وهو المطالبة بالأخاء العالمى أو بالوحدة العالمية ؟ .

فكان جوابه غاية فى الاقناع وغاية فى الدهاء ، وقال لسائليه ـ وهم من المصحفين الأمريكيين ـ : إن الأخاء العالمى لا يصلح إلا لأخوة أحرار ، وأنه إذا كان مقصوراً على المنتصرين فى الحرب ، فغاية مايرجى منه أن يمكن فريقاً من فريق ، وأن يقسم العالم إلى أعداء غالبين وأعداء مغلوبين . فإذا صدقت النية فى التبشير بالأخاء بين بنى الإنسان فليكن أخاء بين أحرار ، وليدخل فى زمرته المنهزمون فى ميادين القتال ، ولايعامل أحد من هؤلاء المنهزمين معاملة التشفى والانتقام .

° ° °

وغنى عن القول أن غاندى لم يكن ليحرم المقاومة العنيفة على أهل الهند ويبيحها لغيرهم من الأمم فى سبيل غاية من

الغايات . فمن شاء أن يقاوم عدوه بالسلاح فهو وشأنه فيما يشاء . وقد كان غاندى يكتب إلى « شيان كاى شيك » زعيم الصين فيحيى فيه جهاده فى تحرير بلاده ، ولكنه إذا سئل رأيه فى أفضل الوسائل فليست لديه وسيلة أفضل من « الاهمسا » لدفع كل خطر وتبليغ كل مقصود . وبخاصة إذا كان المقصود هو تعميم الأخاء بين بنى الانسان وإقامة الوحدة العالمية بين جميع الشعوب . فما من بلاء يحول بين الناس وبين إقامة هذه الوحدة الا كانت « الاهمسا » ترياقاً له أنجع من كل ترياق ، ولا استثناء فى هذا لشىء قط حتى بلاء الفاشية أو بلاء النازية أو بلاء المذاهب المادية . فما على الناس إلا أن يكفوا عن مقاومة عنفها بمثله ، وأن يكفوا عن معونتها فى مضامعها ، وأن يقرنوا الكف بالكفاف والقناعة ، فإذا بهذه الغاية الموموقة أدنى إلى هذه الوسيلة من كل وسيلة يعتمد عليها الساسة والدعاة .

° ° °

ومن البديهى أن رجلا كهذا لا يضمر فى طوية نفسه عداء لأحد من خصومه أو الساخطين عليه ، وكثيراً ما كان يحرج أولئك الخصوم ويوقعهم فى الحيرة والارتباك بجرأة عمله ، كما كان يفعل حين يعلن المقاطعة أو عدم التعاون

أو ينذر الصيام حتى الموت أو يتحدى القوة والقانون ، ولكنه لايبالى بحرج من يحرج وحيرة من يحار ما دام هو مستريح الضمير ، وأنه لمستريح الضمير أبداً ما دام فى حدود « الاهمسا » التى هى فى شرعه رأس الحكمة وجماع الفروض والواجبات ، أو مادام مخلصاً فى اجتناب العدوان ، مخلصاً فى منع الحرج لو استطاع .

* * *

وإذا كانت هذه أساليبه فى معاملة الدولة البريطانية لاحرج يجرى على هذه الأساليب نفسها فى معاملة الطوائف الهندية من غير النحلة الدينية التى ينتمى إليها . فكان يعطف على طائفة المنبوذين ويطلب لهم حقوقاً مساوية لسائر الحقوق ولا يبالى ما يلهبه من الغيظ فى صدور المتعصبين من البراهمة بهذه الدعوة التى تخرق سنن الحياة الهندية من أقدم عصورها ، وكان يأبى اضطهاد المسلمين ويثير عليه السخط من جراء هذه المجاملة التى أودت بحياته . وسئل مرة وهو يطالب الانجليز بالجلاء عن الهند كلها : هل هو على استعداد لتسليم الحكومة الهندية إلى جماعة الرابطة الاسلامية إذا وجب قيام حكومة موقوتة فى فترة الانتقال بين جلاء الانجليز وقيام الحكومة الهندية الدائمة ؟ سأله تاجر مسلم من بومباى هذا السؤال باسم

القائد الإسلامى الأعظم محمد جنة ، فكان جوابه : نعم بلا قيد ولا شرط ولا تحفظ ، إننى أقبل فى هذه الحالة تسليم الحكومة الهندية لجماعة الرابطة الإسلامية فى أقاليمها وفى غير أقاليمها .

ومن أبناء الطوائف من يتهمه بالمكر والمداجاة فى سياسته مع هذه الطوائف ، وأنه يظهر لها الحسنى ويبطن التعصب لأبناء نحلته من ورائها . قالوا : ومن أدلة ذلك أنه نذر الصوم حين هممت الحكومة البريطانية بتقسيم « دوائر انتخابية » للمنبوذين ينفردون بالانتخاب فيها ، لأنه كان يخشى أن تتمزق أوصال البلاد وتنطلق فيها دواعى الفتنة بهذا التقسيم .

قالوا : ومن أدلة ذلك أيضاً أنه كان على رأس قادة المؤتمر فى مناقشة « الباكستان » وتبادل السكان .

وهذه ولا ريب تهم خليقة أن تقال فى أمثال هذه الأحوال ولكن غاندى لم يزعم قط أنه منبوذ أو أنه مسلم ، ولم يزعم قط أنه خارج عن نحلته واعتقاده ، فلا يطلب منه أن يكون من أبناء هذه الطوائف فى طويته وسعيه ، ولا أن ينكر على طائفته كل ما تدعيه ، ومالم يطلب منه هذا فالحقيقة التى لا تقبل المكابرة أن إنصافه للطوائف أكرم إنصاف ينتظر مع هذا الخلاف .

ومن السخف أن يقال إن الرجل وقف حياته « للاهمسا »

ونفض عنه فتن الحياة وشهواتها ليروّج السياسة الطائفية من وراء هذا الستار .

فهو مخلص فى عقيدته وفى سياسته غاية ما يستطاع من إخلاص ، وليس فى طاقة الإنسان وراء هذا الاخلاص غاية لمستطيع .

وليست نظريات « الاهمسا » هى موضع البحث حين نبحث فى قدرة غاندى السياسية أو فى برامجه الوطنية .

فإن إنكار القوة العنيفة كل الإنكار خطأ لا شك فيه . وإن الإيمان بالقوة العنيفة كل الايمان خطأ كذلك لاشك فيه .

وكل مذهب سياسى يمكن أن يقال فى جملته مايقال عن مذهب غاندى فى معرض التخطئة والتصويب .

وإنما موضع البحث فى هذه القدرة السياسية ما اقتدرت عليه ، وما أنجزته على هوى غاندى وعلى غير هواه .

مثل غاندى فى ذلك مثل من ينشىء قوة كهربائية لغرس الأزهار والرياحين ، فتنشأ هذه القوة وتغرس بها الآجام والأدغال وكثير أو قليل من الأزهار والرياحين .

فلا نسأل فى تقدير تلك القوة : ماذا أراد المهندس ؟ ولكننا نسأل ماذا يجدى مراد الآخرين لولم يعطهم المهندس تلك القوة ؟ وقد كان غاندى مهندساً عظيما لأنه أنشأ تلك القوة ، وإن ترك الانتفاع بتصريفها فى أيدى المقادير .

مقتطف شخصية

سيرة غاندى فى معيشته من أبسط السير التى عرفناها لعظيم من عظماء العالم قديمه وحديثه . ولكن هذه السيرة على بساطتها قد اشتملت على جملة من النقائض ، قلما عرفت عن حياة عظيم .

إن الرجل ، عصرى ، بزمنه وتعليمه ، تعلم فى أحدث الجامعات ، وعاش فى أحدث البيئات الإنجليزية ، وتثقف فى بلاده وفى أوربة على النمط الحديث . ولكنك تحسبه من عجائز القرون الوسطى إذ سمعت مثلا برأيه فى الطب والعلاج .

فكان يأبى أن يدخل لقاح الجدرى فى جسمه ، لأنه مأخوذ من جسم البقر ، ويقول لمن حوله إنهم فى حل من التوقى بهذا اللقاح ، أما هو فلا يستحله لنفسه وإن كان لاينكر فعله فى الوقاية .

ولم يقبل أن يعالج بالجراحة فى السجن إلا حين رأى مدير السجن يضطرب بين يديه ويخشى العاقبة إذا مات وهو سجين عنده ، لما يحدثه موته فى السجن من سوء الأثر فى سمعة الدولة البريطانية .

ومرض ابنه الثاني بذات الصدر ، فأصابه الهزال ، واحتاج إلى غذاء أقوى من الأغذية النباتية والأغذية المباحة في الشريعة الجينية ، وأشار الأطباء بإطعامه البيض وحساء الفراريج وغيرها من الأطعمة الحيوانية . فأبى غاندى أن يغذى جسما حياً بجسم حي ، وإن كانت حياة ولده في خطر ، وكانت هذه التغذية منقذة له في رأى الأطباء ، وأبى أخيه بعرض الأمر على ولده ، وقال له إنه يرجو خيراً من استخدام العلاج المائي Hydropathetic Treatment لمداواة علته ، فكان أن ولد سر أبيه حقاً ، وأبى الصبي أن يأكل البيض والفراريج ، مكتفياً بعصير البرتقال وبعض الأغذية المباحة ، معتمداً على وصفة الأطباء المائيين . فشاءت المقادير أن يتم له الشفاء .

ومن رأى غاندى في الأدوية عامة أن ضررها أكبر من نفعها . لأن البيئة كفيلة بإصلاح نقصها ، وغاية ما يستفيده المريض إذا أخر معدته أو جار على قواه فاستشفى بالدواء ، أن يغريه هذا الشفاء بالعودة إلى الخطأ والتمادى فيه . ولولا ذلك لقوّم معيشته فاستقام .

على أن المهاتما يستثنى بالنظارات وبالأسنان الصناعية ولا يرى في استخدامها خروجاً على سنة التقشف وترك التعنون .

إلا أن هذا الرجل الذى يتحرج هذا التحرج من المساس بحياة مخلوق لم يتحرج من قتل عجل ولا من الإشارة باستخدام المقلاع فى طرد القردة التى تغير على الحقول ، وهى أكثر من أن تطاق حيث كان يقيم فى « أحمد أباد » . ولكنه لم يقبل قتل العجل إلا بعد أن برّحت به آلام المرض تبريحاً لا يرجى شفاؤه منه ، ولم يقبل تعريض القردة للموت برمية حجر هنا أو هناك إلا لأنها كانت تعرض للموت والجوع حياة الآدميين .

* * *

وكان غاندى يعيش فى عصر « الصور المتحركة » الذى غلبت فيه شهرة الممثلين والممثلات على شهرة الساسة والعلماء ، وتسامع فيه الأميون بين القرى السحيقة بأسماء أبطالها وبطلاتها حيث لا يسمعون بما وراء قريتهم فى سائر الشئون .

ولكنه مع هذا لم يعرف من هو « شارلى شابلن » حين زاره فى العاصمة الانجليزية وحمل إليه حاجبه بطاقة الممثل الكبير . فسأل الحاجب : من يكون السيد صاحب البطاقة ؟ وأغرب من هذا أنهما لما التقيا رأى الحاضرون فى ذلك المجلس الطريف ما لم يخطر لهم على بال : رأوا أمير الجد والنسك هو الذى ناوش أمير الفكاهة واللهو ضاحكا مستغربا طوال فترة الحديث .

وكان غاندى يؤمن بأن « الموكشا » أو اعتزال العلاقات الجنسية هو سبيل الخلاص الأعظم ومعراج الروح إلى عالم الصفاء والخلود .

وكان يؤثر المذهب الكاثوليكى على المذهب البروتستانتى فى الديانة المسيحية ، ويقول إن الرهبانية هى التى صانت للكنيسة الكاثوليكية نضرتها وحفظت عليها قداستها .

وقد أقسم وهو فى نحو السابعة والثلاثين قسم التبتل المعروف عندهم بالبرهماشاريا Brahmacharya فاعتزل زوجته منذ ذلك الحين .

ولكنه لما عرضت له مشكلة الأيامى الصغيرات جرد نفسه للعناية بتزويجهن وأوصى الشباب أن يقبلوا على التزوج من هؤلاء الفتيات المهجورات . خلافاً للعرف الذى قضى فى الهند بتحريم الزواج عليهن مدى الحياة ، لأنهن مذورات لأزواجهن فى عالم الجسد وفى عالم الروح .

ولما سئل رأيه فى المعقمات أنحى عليها أشد الانحاء ، لأنها تجعل العلاقة الجنسية بين الزوجين محض شهوة ، وتسلبها المسوغ الوحيد لقيامها ، وهو إنجاب الأبناء .

* * *

وكان غاندى صحفياً يصدر صحيفة دورية ويكتبها ويواظب على إصدارها وكتابتها

ولـكنه حذر من الصحافة وأسف لتهافت الناس عليها ، فقال غير مرة بمختلف العبارات : « أقول لـكم إن الصحافة لن تعطيكم شيئاً فيه لـكم مصلحة دائمة . وإنها لن تعطيكم شيئاً يساعدكم فى تـكوين أخلاقكم . ولا أجهل مع هذا ولع الناس بها فى هذا الزمان . فهو محزن ومخيف » .

* * *

نقائض كثيرة من هذا القبيل فى أعماله وفى وصاياه .

فهل يقال من أجل ذلك أنه لغز من الألغاز النفسانية التى تحيرنا فى نقائض بعض العظماء .

لا نحسب أنه لغز غير مفهوم ، وإن بلغت نقائضه أضعاف ما أشرنا إليه . لأن الشخصية الملغزة هى الشخصية التى تعمل ما لا تنتظره منها ، أو الشخصية التى تفاجئك فى كل تصرف من تصرفاتها بمصدر جديد تصدر عنه فى أعمالها وأقوالها .

وليس غاندى كذلك على التحقيق .

لأننا إذا عرفناه لم ننتظر منه غير ما فعل وغير ما قال ، فى جميع هذه الأحوال .

* * *

إننا لانحاسب غاندى محاسبة الفيلسوف ، ولا محاسبة الحاكم ، ولا محاسبة الفنان .

وإنما يوزن غاندى بميزانه الذى ليس له ميزان غيره . وهو ميزان الناسك المصلح الجاد فى نسكه وإصلاحه : مطلبه الأول هو خلاص الروح قبل كل شىء وبعد كل شىء ، وليس فى الكون كله ما يعدل عنده هذا الخلاص . لأنه اتصال بالإله مصدر الخير والسعادة ، وكل ما عداه فهو اتصال بما دون الإله .

قال فى ترجمة حياته : « إن أعمالى فى ميدان السياسة معروفة الآن فى الهند ، بل معروفة على نحو ما فى العالم المتحضر بأسره . وهذا كله ليس بذى شأن كبير عندى . فإن ما أردت أن أبلغه فى هذه السنين الثلاثين هو تحقيق روحى وتصحيحها ؛ أو هو لقاء الله وجهاً لوجه . والوصول إلى — الموكشا — أو الخلاص » .

فالرجل كما أسلفنا ناسك جاد فى نسكه قبل كل شىء وبعد كل شىء ؛ عنايته الكبرى منصرفة إلى المسائل الأبدية التى تحسب بأعمار الأكوان ولا تحسب بأعمار الآحاد . ولكنه زعيم الهند وقائد أبنائها فى طريق الحياة القومية . فلا مناص له من العناية بمسائل الحاضر وشواغل الساعة ، ومن هنا يأتى التناقض لا محالة . كما لابد أن يأتى فى كل توفيق بين مسائل الأبد الباقى ومسائل الساعة العابرة .

قد يقال : وما للناسك الجاد فى نسكه وللسياسة ؟ إنه غريب عنها وهى غريبة عنه . . . عليه أن يعتزلها مع الدنيا ، وأن يدع للناس أمر دنياهم يديرونه على هواهم ، وينجو بروحه وضميره من هذا الزحام ، إلى صومعة من صوامع الوحدة والقنوت .

وهذه حقيقة تقال وتسمع فى سيرة غاندى وأمثاله .

ولكنها حقيقة ناقصة ، لأنها حقيقة من جانب واحد ، وهو الجانب الذى يملكه غاندى ويختاره ، دون الجانب الذى يساق إليه على الرغم منه ، وهو قيادة الهند بأجمعها فى طريق الخلاص .

إن الهند لا تنفعها إلا زعامة واحدة : وهى الزعامة التى تخاطب روحها وتنفذ إلى صميم وجدانها .

إن زعامة الساسة الذين ينغمسون فى الدنيا تضلها وتؤذيها وتثير فيها الريبة وسوء المظنة .

فلم تخلق لها زعامة أصلح من زعامة الرجل الذى لا يستراب فى مقاصده ونياته ، وهو الرجل الناسك المقبل على عالم الروح .

فالهند لا تترك غاندى إذا تركها .

وهو إذا تركها كان أقل من غاندى وأصغر . لأنه يؤثر

خلاصه على خلاصها ، وينظر فيما يريحه ولا ينظر فيما يريحها .

وإنما يكون ترك الزعامة « تضحية » عندما تكون الزعامة كسباً وجاهاً لصاحبها ، فيقال إنه ضحى بالكسب والجاه فى سبيل العزلة الروحانية .

أما الرجل الذى يغنم من العزلة ولا يغنم من الزعامة ، فالتضحية عنده أن يعيش بين الناس ويعمل مع الناس ، لأنه يعطيهم كل ما يستطيع إعطاءه ، ولا يأخذ منهم شيئاً من الأشياء ، فى عالم الجسد ولا فى عالم الروح .

ومثل هذا الرجل لن يعمل غير ما عمل غاندى ، ولن يقول غير ما قال . فليس فى وصايا زعيم الهند على هذا الاعتبار لغز مستغرب . بل هى وصاياه التى تجرى فى مجراها ونفهم معناها ، وكل ما عداها فهو الغريب الذى يحتاج إلى تفسير .

* * *

وقر فى يقين « المهاتما » أن آفة العالم كله ، وآفة الهند خاصة ، هى الحضارة الآلية . لأنها تحجب عن الإنسان مطالبه العليا وتشغله بمطالب لا يحتاج إليها .

فهذه الحضارة الآلية لا تغنى الإنسان ، بل تخلق له الحاجات التى هو غنى عنها ، وتسخره فى سبيل هذه الحاجات المصطنعة ، فيتهالك عليها ويتنازع فيها ، ويضرى على العدوان من جراء هذا التهالك وهذا النزاع

وليس لهذه الآفة دواء فى عقيدة غاندى غير البساطة الطبيعية ، وهى الاستغناء عن كل ما يمكن الاستغناء عنه ، ووضع الآلة والصناعة فى وضعهما الأصيل : وهو خدمة الإنسان فى ضروراته ، وسد نقص الطبيعة فى خدمة هذه الضرورات .

وهو لا ينكر العلاج بالطب الحديث لذاته ، ولا ينكره على طريقة الخرافيين الذين يستبدلون به طباً آخر ينوب فيه علاج الجهل عن علاج المعرفة والتجربة العلمية . ولكنه يرى أن العلاج الطبى ضرورى فى حالة الحضارة الآلية ولا ضرورة له ولا فائدة فى حالة البساطة الطبيعية ، ولعله لا يخلو من الضرر إذا شفى به المريض ، فاعتمد عليه وانحرف عن سواء الطبيعة لاطمئنانه إلى إمكان الشفاء عن طريق العلاج .

فالبنية التى يلتزم صاحبها معيشة البساطة لا يختل مزاجها ولا يصعب — عند اختلاله عرضاً — أن يعود بتدبير البنية السليمة إلى سوائه . ولكنه إذا تناول الدواء فشفاه تعوّد مخالفة البساطة ولم يحذر عواقب المخالفة ، فأضعف بنيته عن قدرة التعويض والتصحيح ، واستمرأ العيث بطعامه وشرابه وأسلوب معيشته لأنه لا يحذر عقباه .

أما علاج المرض بتغذية الجسم بالأغذية المحرمة فى شريعة

الهند فذلك شيء آخر . لأن الأمر فيه يرجع إلى التعارض بين واجبين والموازنة بين أي الواجبين أولى بالترجيح على حسب اعتقاد المريض أو على حسب مشيئته واختياره .

فغاندى الذى يسوم أهل الهند أن يعرضوا عن فتنة الحضارة الآلية يعلم أنهم لا يقدرون على ذلك إلا بقوة تعصمهم من تلك الفتنة ، وهى قوة الإيمان .

فهذا الإيمان هو الحصن المنيع الذى ينبغى ألا تنفتح فيه ثغرة ، ولا يتزلزل له أساس .

فإذا وقفت الحياة الفردية أمام هذا الإيمان فهذه هى الحيرة أو هذا هو مجال الحسم والإيثار .

وغاندى إذن لا يهمل العلاج بالطب إهمالا للحياة ، بل صيانة لكل حياة .

وإذا رجعنا إلى المبدأ لم نجد خلافاً بين غاندى وبين المصلحين من جميع النحل والعقائد . لأنهم يؤمنون جميعاً بصيانة الحياة الإنسانية ، ويؤمنون مع ذلك بمبدأ آخر لا اختلاف بينهم عليه . وهو : أن هذه الحياة لا تصان بكل ثمن ، وعلى الرغم من كل فريضة توجبها العقيدة أو توجبها الأخلاق .

والفرق بين غاندى وغيره من المصلحين هو اختلاف

العقيدة ، لا اختلاف الرأى فى هذا المبدأ المتفق عليه .

فهناك أشياء تهون فيها الحياة فى سبيل هذا المبدأ كلما تعارضت الحياة وسلامة الضمير والوجدان .

ولا معارضة للضمير عند المسلمين والمسيحيين مثلا فى تغذية المريض أو الصحيح بلحوم الحيوان . ولكن هذه المعارضة قائمة فى عقيدة الهنديين ، واحترام هذه العقيدة أمر لا يترخص فيه رجل يقيم دعوته كلها على الإيمان ، ويعلم أن الإيمان هو العصمة الوحيدة التى يغلب بها فتنة الحضارة وفتن السياسة والسطوة والثراء .

ولك أن تقول أنه غير مصيب ، ولكنك لا تستطيع أن تقول أن فى هذه الحالة لغز غير مفهوم .

ولك أن تقول أيضاً أنه يكلف الناس ما لا يستطاع ، ويحملهم على محمل لا يقوى عليه كل إنسان من أتباعه ومريديه .

ولكنك إذا قلت هذا وجب أن تذكر أن غاندى فى هذه الخصلة وسائر الدعاة والمصلحين سواء ، لأنهم جميعاً يفرضون مايحمل اتباعه ، ثم لا يتبعه إلا القليل من القادرين عليه ، ويبقى الأكثرون وهم يحاولونه فيفلحون تارة ويخفقون تارات .

* * *

ولا تناقض بين اشتغال غاندى بالصحافة واستهجانه

لتهافت الناس عليها والاشتغال بأحاديثها وأخبارها ، فإنما الصحافة عنده صلة روحية بينه وبين قرائه ، وليست للقارىء صلة روحية بصحافة تشغله باللغط والثرثرة وتضيع عليه الوقت فى التطلع والمحال .

فالجد فى النسك هو تفسير كل لبس فى حياة هذا الناسك العظيم ، ولولا هذه القوة الخلقية الهائلة لما تأتى له أن يكبح شهواته وهى ميسّرة كل التيسير إن شاء . ومنها شهوات يستعصى كبحها على أقدر الرجال ، كشهوة الحكم ، وشهوة الترف ، وشهوة المال .

ولولا هذه القوة الخلقية الهائلة لما استنهض الهند كلها فى صراع يحتاج منها إلى كل قوة مدخرة فيها ، وهى فقيرة فى قوة العلم وقوة السلاح .

ولو أن الهند تلقته زعيما يلبس أحدث الأزياء ، ويغشى أظرف الأندية ، ويأخذ بكل بهجة من مباهج العيش الحديث لما زاد على الهند ولا على العالم شيء ، ولكنها كانت تخسر كل ما استفادته من تلك البساطة الهائلة ، بالغاً ما بلغ فيها التناقض والإغراب .

* * *

على أن الجد فى النسك لا يدل فى غاندى خاصةً على خلق

من خلائق التجهم والصرامة ، وهما أول ما يبادر الذهن من كلمة النسك وكلمة الجد مقترنتين .

فلم يكن فى الرجل تجهم ولا صرامة . بل كانت له سماحة تفيض بالمرح والفكاهة فى كثير من المواقف ، وكانت له فطنة لمواقف الضحك الطبيعية ، لا تخطئها تكلفة بريئة من الإساءة والتكدير .

وتعبيراته عن أخطر الأمور تدل على هذه الخليقة السمحة وهذه السليقة الفكاهية التى يلطّف بها جهامة العظائم والخطوب .

سألوه مرة : كيف تغيب عنه معائب عقيدته التى يدين بها نفسه ويدين بها أتباعه ومريديه . فحلّ المشكلة أظرف حلّ وأصدقه فى كلمات قليلة ، وقال : إن عقيدة المرء كزوجته . وهو لا يحب زوجته لأنها أجمل النساء وأسلمهن من العيوب ولكنه يحبها ويلازمها لأنها أقرب النساء إليه .

ودعاه نائب الملك مرة فى جمع من كبار الموظفين ورجال الدولة ، فجاموه ببعض الشراب الحلو فاعتذر ودعى بكوب من الماء . فلما جاموه به أخرج من حزامه صرة صغيرة ، فأذاب ما فيها وهو يضحك ، وشربها « فى صحة نائب الملك » وإذا هو ملح ممنوع ، يشربه فى المكان الذى يصدر منه المنع والتحريم .

ودعاه نائب الملك مرة أخرى فسأله حفيده الصغير : إلى أين تذهب يا جداه؟. قال الجد الوقور متبسطاً : إلى نائب الملك .

قال الطفل دهشاً : ولكنك تذهب دائماً دائماً إلى نائب الملك . فلماذا لا يحضر نائب الملك مرة إليك ؟

فلم يزل غاندى يضحك حتى فارق الدار .

إن الفكاهة فكاهتان : فكاهة النقمة وهى سلاح عدوان ودفاع ، وفكاهة السماحة، وهى عاطفة تغتفر صغائر الناس كما يغتفر الآباء صغائر الأبناء .

وقد كان نصيب غاندى من هذه الفكاهة أوفى نصيب .

إلا أنها فكاهة من قبيل السليقة النفسية وليست من قبيل الملكة الفكرية ، فهى تسرى إلى الشعور ، وقلما تروى بالكلام

* * *

وقد تناقض النسك والحصافة فى رأى أكثر الناس ، بل قرنوا — قديماً وحديثاً — بين الإعراض عن الدنيا وانخلاع العقل والشعور . كأنهم — لإكبارهم متاع الدنيا — لا يصدقون أن أحداً يتصرف عنها وله حظ من العقل الحصيف .

ولكن غاندى على التخصيص كان نقضاً بارزاً لهذا

التناقض المزعوم . فقد كانت له حصافة وكان له دهاء ، وكان من الأذكياء المعدودين ، وإن لم يكن من المعدودين بين أعاظم المفكرين .

فقد يأتى بين أعاظم المفكرين فى الصف الثانى أو الثالث .

وقد يأتى فى الصف الثانى أو الثالث أيضاً بين أعاظم الساسة وخطباء الجماهير .

ولـكنه بين جبابرة الروح فى الرعيل الأول لا مراء .

وبهذه القوة الهـائلة فيه قد استطاع ما لم يستطعه أحد فى الصف الأول من صفوف المفـكرين ، أو صفوف الساسة والخطباء .

تقديره ونقده

كان غاندى يناوىء الحكومة البريطانية فى إبان الحرب العالمية الثانية ، فحنق عليه بعض الإنجليز واتهموه بأنه من أعوان هتلر ، أو أنه من أولئك الذين عرفوا فى إبان الحرب باسم « الطابور الخامس » ، وهم الذين يساعدون النازيين بإزعاج خصومهم فى إبان القتال . فتصدى للدفاع عنه رجل من أكبر رجالات الإمبراطورية : وهو المارشال سمطس القائد السياسى الفيلسوف ، وقال إن غاندى أرفع من أن تلصق به تهمة . لأنه رجل من أعظم رجال العالم ، وهيهات أن يسخر لخدمة غرض من الأغراض .

وكان برنارد شو يقول : إن غاندى من العظماء الذين لا يجود التاريخ بأمثالهم إلا مرة فى كل ألف سنة .

وكان رومان رولان — وهو من أكبر كتاب الغرب وأشرفهم فى العصر الحديث — يضع غاندى فى طليعة أقطاب الإنسانية ، ويبشر الغرب بأمثلته العليا ، وله فى سيرته كتاب يشف عن إجلال بالغ وحب عميق .

ولما نعى غاندى إلى أمم الغرب أسف البابا لمنعاه وهو

رأس الكنيسة المسيحية الكبرى ، وقال أسقف من رجال الكنيسة الأمريكية : إن غاندى مسيح . ثم عطف فقال : إنه لا يعنى بذلك أنه كالمسيح أو أنه يشبه المسيح . ولكنه يعنى أنه السيد المسيح بعينه قد عاد إلى عالم الجسد لإتمام رسالة الحب والصلاح .

وتنبأ نواب فرنسا متعاد وقوفاً احتراماً .

ورثاه رئيس الوزارة الإنجليزية — أكبر خصومه فى ميدان السياسة — فأطنب فى تعظيمه والأسف لفجيعة الشرق ، وفى الإنسان ، فيه .

وليس فى هؤلاء جميعاً أحد يؤمن بديانة غاندى ، بل ليس فيهم أحد يرى فى صلاح الحياة البشرية مثل رأيه . فهم لا يعظمونه لأنهم يوافقونه ويتبعون عقيدته ورأيه ، ولكنهم يعظمونه لأنه عظيم .

وإذا لم يكن تعظيم الرجل مقصوراً على شيعته وأهل وطنه وعقيدته ، فتلك آية العظمة الإنسانية لا مراء .

فليس العظيم من لا يخالفه أحد . فقد يبلغ العظيم غايته من العظمة ويخالفه أكثر من موافقيه .

وليس العظيم من خلا من ناحية نقص . فقد يكون حسبه أنه امتلأ بناحية عظمة ، وكان فيه موضع

غاندی ورومان رولان

للنقص ، كما كان فيه موضع للكمال .

وإذا ظهر نقص العظيم فليس تعليل ذلك أنه غير عظيم ، وإنما تعليله أن الإنسانية تقسم لأنواع شتى من العظمات ، وأنواع شتى من الدعوات ، وإنها لن تكون فى جملتها إنسانية كاملة إن كانت لا تعرف إلا نوعاً واحداً من العظمة وناحية واحدة من نواحيها .

وتعدد العظمات معناه الوحيد أن كل عظمة منها لازمة ، وأن كل عظمة منها متممة للأخرى ، وأنها تتم من ناحية النقص فيها . فلا غرابة فى استهداف عظيم للنقد والتعقيب . بل لعله لا يستهدف للنقد والتعقيب إلا لأنه عظيم .

وهكذا كان غاندى فى دعوته ، وهكذا كان فى تفكيره على الخصوص .

كان فيه متسع للإعجاب الكبير ، ومتسع للنقد الكثير .

وأحق ناحية فيه بالنقد هى الناحية التى استحق بها الإعجاب ، وهى ناحية الكفاح فى سبيل الروح ، أو هى ناحية الكفاح بين الأشرف والأخس من طبيعتى الإنسان .

وأول ما ينتقد من هذه الناحية أنه حصر ميدان الكفاح .

فالرجل الذى كان يؤمن بأن الأبد كله هو معركة بين الروح والجسد ، قد أخرج كفاح الحضارة من هذا الميدان ،

وحصر الكفاح كله فى روح الإنسان وأعضاء الإنسان .

لكنّ كفاح الحضارة فى الواقع هو الميدان الأكبر لغلبة الفكر وغلبة الروح ، أو لتقوية النفس صعداً فى معارج اليأس والانتصار .

فالهرب من الحضارة هرب من ميدان هذا الكفاح ، أو هو على الأقل انتصار فى غير ملحمة ، ويأس لم يتعرض لتجربة تدله على نفسه ، أو تدل غيره عليه .

إن سيئات الحضارة هى سيئات الجسد فى مجال أوسع وأبق . . وفرصة الروح ، أو فرصة العقل ، فى ترويض هذه السيئات ـ هى فرصة الأمم بمجموعات متعاقبات . فهى ألزم من معركة الصومعة المنعزلة بين روح إنسان وجسد إنسان .

وإذا كان الإنسان الفرد يجد روحه فى كفاح مطالب الجسد وشهواته ، فالأمم التى لاعداد لها تجد روحها فى كفاح مطالب الحضارة وشهواتها ، أو فى هذا الصراع الذى يتلاقى فيه الخير بالشر ، والقوة بالضعف ، والمعرفة والعلم بالجهل والغباء .

وما تعلمت الإنسانية من شىء قط كما تعلمت من الشدائد ، وفى مقدمتها الحروب ، وهى شر مايبتلى به الناس .

فكل حرب يأتى بعدها للإنسانية تاريخ جديد .

فتحت الحروب الصليبية أبواباً كانت مغلقة بين المغرب والمشرق ، وفتحت الحروب العثمانية أبواباً كانت مغلقة بين العالم الحديث والعالم القديم ؛ فظهرت القارات الخمس بعضها لبعض ، بعد أن كان شطر منها مطوياً وراء الحجاب .

وجاءت الحروب الحديثة فتقدمت معها المخترعات ، وأصبحت هذه المخترعات شغلا شاغلا للأمم فى سبيل الدفاع عن الحياة ، ولم تكن قبل ذلك تشغل أحداً غير الخاصة من العلماء والمخترعين .

وقد يستطيع العالم الواحد أن يعرف أسرار القنبلة الذرية ، ولكن الأمر يحتاج إلى اهتمام أمة كبيرة ليحصل ذلك العالم على الملايين من الذهب ؛ ليبنى بها المصانع ويتخير بها الآلات ، ويترقى بها فى مراتب التدقيق والإحكام .

وهكذا تساق الإنسانية إلى المعرفة بعصا من الضرورة ، وتندفع مع الشر فتنتهى إلى الخير ، وتنقاد للشهوات وتوازعها ثم تقبض على زمامها بعد طول الجماح .

ومن طريق العقل يترقى العالم والحكيم .

ولكن الأمم لا تندفع معه إلا إذا اندفعت بغريزة قاهرة ، دفاعاً عن الحياة أو طلباً للمجد والسيادة .

والطبيعة تعلّمنا ذلك كل يوم وتعلمنا إياه فى ولادة كل مولود .

فكل أب وكل أم يسهران الليل ويشقيان بالنهار لحفظ النوع وتربية الأطفال . ولكن قلّ أن يعيش طفل فى هذه الدنيا لو قيل للآباء والأمهات : إنكم تحفظون النوع وتعملون لغير أنفسكم ، ولم تعطهم الغريزةُ سروراً وغبطة تختلج بها الأجساد ، إذ يحتملون هذه التضحية من أجل بقاء الحياة لأحفاد لا يرونهم بعد مئات السنين ، وألوف السنين .

وهكذا تساق الإنسانية إلى التعاون بين أبنائها والتضامن بين أقوياتها وضعفائها . يطمع هذا فى السيادة على الدنيا ، وينبرى هذا للدفاع عن حياته . فلا يسود هذا ولا يدافع هذا عن حياته وكفى . بل يعملان معاً للوحدة الإنسانية فى أوانها المقدور . .

ومن طريق الحروب ومخترعات الحضارة تقاربت الأمم واشتركت فى هذه الوحدة الإنسانية . فاشتبكت بينها المواصلات والمعاملات ، وبلغ من تقارب الكرة الأرضية ما لم يبلغه فى عصر من العصور : ينطق القائل بالكلمة فإذا هى مسموعة بعد هنيهة على مسافة الألوف من الفراسخ ، كأنما القائل والسامع يجلسان فى حجرة واحدة ، ويقع الحادث فى الصباح فلا يعود صباح بعده حتى يملأ خبره ما تملأه الشمس من الأرضين والبحار ، وتهم الدولة القوية بعمل من الأعمال

فتنظر إلى أصغر دولة فى أقصى الأرض لعلها تأبى ما تريده ، ولعلها تقلب ميزان النصر فى أزمة من أزمات النضال فينحول النصر من فريق إلى فريق .

من أين كنا نبلغ هذا لو أحجمنا عن الحضارة من مرحلتها الأولى ؟

إننا أطعنا المادة غاية ما تطاع ، حتى كشفنا عنها الستار فاذا هى نور .

وعلم الناس من خبر « القنبلة الذرية » أن المادة شعاع وأن الشعاع ، حسبة رياضية ، تدركها العقول ولا تتوقف على كثافة الأجساد .

فعادت بنا المادة إلى عالم العقل المجرد ، ولكن من طريق الإيغال فيها لا من طريق الإحجام عنها أو من طريق الكفاح لا من طريق التسليم .

ذلك كله حق نلمسه الآن .

وذلك ما لم يدخله غاندى فى حسابه ، وهو يبشر بدعوته .

ولكن هل كان فى وسعه أن يدخله فى حسابه . وتبقى له دعوة تدعى ؟

إن المثل هنا أعون على الجواب من إطالة الشرح والبيان فانظر قد تعلم ولا ريب من الأوبئة والمطواعين ، ولولا

الوباء بعد الوباء لما عرف الأطباء أسرار الجراثيم ، ولا حقائق الأمراض .

ولكن الطبيب مع هذا يوصى بالدواء ، ولا يوصى بالطاعون .

وغاندى هو الطبيب ، وشرور الحضارة هى الطاعون !

فإن كانت له فى هذا العالم دعوة فلن تكون هذه الدعوة إلا كما دعاها ، وإن لم تكن قط فتلك هى الخسارة على الناس فى هذا الميدان الفسيح الذى يتسع لجميع الدعوات .

ومثله بين المصلحين كمثل العازف الماهر الذى لا يسمع وحده . ولكنه إذا سكت كانت كل فرقة موسيقية ناقصة بغيره .

ومكانه من العظمة أنه يتمم هذا النقص .

وليس مكانه من العظمة أنه خلا من كل نقص يعاب عليه .

وحسبه ذلك من مراتب الكمال التى تتاح للإنسان .

مصرع

فى صباح يوم السبت (الثامن والعشرين من شهر فبراير سنة ١٩٤٨) ، خرجت من أرض الهند آخر فرقة من الجيش البريطانى كانت معسكرة فيها ، بعد أن احتلها هذا الجيش بضعة من القرن ، زهاء مائتى سنة .

خرجت من ميناء بومباى .

ووقفت قبل خروجها تبادل فرقةٌ من الجيش الهندى تحية السلاح .

وعزفت موسيقاها بنشيد « حفظ الله الملك » ونشيد الهند الوطنى « قاندى ماترام » .

وهتف قائدها « جاى هند » أى لتحيى الهند . . . وكان آخر من صعد إلى السفينة ، فى عودةٍ كان مقدمها فى الواقع قبل مائتى عام .

وبهذه الصفحة طوى السجل الذى كتبت صفحته الأولى فى الثالث والعشرين من شهر يونية سنة ١٧٥٧ : وهو يوم المعركة التاريخية فى حياة الشعوب الهندية ، وحياة الدولة البريطانية : معركة « پلاسى » التى بسطت يد اللورد

« كلايف » على العروش فى الهند والشعوب .

كنت أقرأ فى صباى كتاب « الأبطال » لتوماس كارليل الفيلسوف الإيقوسى الكبير . وكنت أعجب منه بالفصل الذى كتبه فيه عن شكسبير ، وكان أعجب مايعجبنى منه خاصة قوله : إن شكسبير أعز على الأمم التى تتكلم الإنجليزية من الهند وكنوزها . لأن الهند وكنوزها ستخرج من أيدينا فى يوم من الأيام . أما شكسبير فهو الفخر الذى لايسترد ، ولا يزول .

ستخرج الهند من يد الدولة البريطانية فى يوم من الأيام؟

نعم . إن يوم الخروج لابد آت . ولكن متى ؟ متى يحين ذلك الحين الذى نظر إليه الفيلسوف ؟

لم نقدر بأية حال أنه حادث من الحوادث التى نشهدها فى هذه الحياة ، وأنه سيصبح عما قريب خبراً من أخبار البرق ، التى يوالينا بها فى هذه الأيام .

وأكبر الظن أنه لولا رجل واحد ظهر فى الهند ، لتأجل موعده إلى حياة أبناء ، بل حياة أحفاد .

ذلك الرجل الواحد هو « غاندى » بلا مراء .

* * *

لقد اشتركت فى تهيئة ذلك المنظر الصغير — على ميناء بومباى — عوامل لا تحصى فى صفحات .

غاندی بین حمیدیه

عوامل بعضها من الهند نفسها ، وبعضها من القارة الآسيوية فى جملتها ، وبعضها من الكرة الأرضية بأسرها .

ولكنها إذا وجب أن تحصر فى شخص واحد ، لم نجد شخصاً واحداً نحصرها فيه ، غير ذلك الجسد الضئيل : ذلك الروح العظيم .

إنه هو الرجل الواحد الذى يمكن أن يقال أنه عجّل بذلك اليوم حتى دخل فى حوادث هذه السنة (سنة ١٩٤٨)، للميلاد . .

لأنه هو الرجل الواحد الذى أدخل فى روع الإنجليز أن بقاءهم فى الهند عناء لا جدوى لهم فيه ، وأن الجلاء عنها أصلح لهم من البقاء .

* * *

فقد كان من الجائز — بعد هزيمة اليابان فى الحرب العالمية الثانية وزوال الخطر الياباني عن الهند — أن توازن بريطانيا العظمى بين البقاء والجلاء فيبدو لها أن البقاء أيسر كلفة من الجلاء . ولكن غاندى هو الذى قلب لها كفتى الميزان فأقنعها بأن الأمر معها على نقيض ذلك ، وأن جلاءها أيسر كلفة عليها من بقائها ، لأنه جعل المقاطعة السياسية والاقتصادية سلاحاً قاطعاً يضاعف مشقة الإنجليز فى حكم

الهند والاضطلاع بتبعة الدفاع عنها ويقلل من منافع هذا الحكم ومزاياه . وكان مرجع الفضل فى نجاحه إلى إخلاصه وتجرده المطلق من المآرب الشخصية ، فلم يشق على أحد من خاصة أهل الهند وعامتهم أن يقنع بالكفاف وأن يتحدى المحن والشدائد ، وهو يرى أمامه رجلا عالياً موفور الكرامة والوقار يقنع من الكساء والغذاء بكلفة لا تتجاوز بضعة دريهمات .

وأعانه على رسالته أنها رسالة من طبيعة الهند وعنصرها، لأنها رياضة روحانية فى بلد « الفقراء » والنساك . فصح فيه أنه رد الهند إلى روحها أو رد روح الهند إليها .

وبحق جعل الهنود مغزله شارة الهند على علمها المثلث ، ذى اللون « الأخضر ، الأبيض ، البرتقالى » . . . وحولوه إلى مغزل « بوذا » الذى يغزل به خيوط الحياة .

وقد وعى القوم درسهم من الحرب العالمية الأولى . فلما نشبت الحرب العالمية الثانية لم يقبلوا كما قبلوا فى الحرب الأولى أن يبيعوا عاجلا بنسيء ، وأخذوا على أنفسهم العهد أن ينصروا قضية الديمقراطية ، وأخذوا على الإنجليز العهد أن يكون لهم من هذه الديمقراطية نصيبٌ لا وكس فيه ولا تسويف، وكان غاندى على طليعة « المتطرفين » فى هذه الحملة . لأنه

جعل نداءها على كل لسان : « أتركوا الهند » . . . وأصر على الجلاء بغير شرط ولا قيد ولا تسويف .

وبدأت هذه الحملة والحرب قائمة ، والجيوش اليابانية تغير على بورما وسنغافورة ، وتجد لها أشياعاً فى داخل الهند من أبنائها الذين استجابوا لدعوة (آسيا للآسيويين) .

وكانت مسألة الخلافة الإسلامية قد انتهت فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، فعمل المسلمون فى الحركة الوطنية غير مرتبطين بخطة من خطط السياسة البريطانية قبل دولة الخلافة : سواء فيما اختاروه من مقاومة أو وفاق .

وراحت حكومة بريطانيا العظمى تقترح الحل بعد الحل ، وتشرع النظام بعد النظام ، وتستشير تارة وتنفرد بالرأى تارة أخرى ، فانتهت إلى حل موقوت فى حكم البلاد الهندية بحملتها ريثما تتحلل عنها وتنفض من تبعاتها كلتا يديها ، وهو حل الحكومة الاتحادية التى يقوم عليها مجلس وزراء وهيئة نيابية يشترك فيها الهندوسيون والمسلمون

فحبط هذا الحل أمام عقبة كأداء تنفرد بها الهند خاصة بين بلاد العالم ، وهى عقبة الأقليات

وليس شأنها فى الهند كشأنها فى سائر البلاد الأخرى ، لأنها فى الهند أقليات وليست بأقليات .

فالمسلمون فى الهند كثرة غالبة فى بعض الأقاليم ، وقلة صغيرة فى بعض الأقاليم ، وقلة كبيرة فى أقاليم أخرى .

وبينهم وبين الهندوسيين اختلاف شديد فى الجنس واللغة والعقيدة ، لخصه السيد محمد على جناح رئيس الرابطة الإسلامية فى كلمة واحدة حين قال : كيف يُحكم بنظام واحد قوم يعبدون البقرة وقوم يأكلونها ؟

وأعضل ما فى الأمر أن وطنية الهندوسيين هى فى صميمها وطنية عقيدة روحانية ، أو عقيدة دينية ، وأن زعيمها لم يفلح فى دعوته إلا لأنه قاد دعوتها الوطنية من هذه الناحية . وما فى كل يوم يجد المسلمون أمامهم زعيما كغاندى يعتصم بالسماحة فى قوة وصدق طوية ، ويستطيع أن يروض أتباعه على العدل والرفق وحسن المعاشرة وفض المشكلات بترضية المخالفين فى الرأى والعقيدة .

على أن غاندى نفسه قد غالته يد هندية لأنه استهجن ذبح المسلمين والتشنيع بنسائهم وأطفالهم على مشهد من الشرطة وجنود الحكومة الهندية . فإذا أوجس المسلمون شراً من حكومة كهذه فلهم العذر كل العذر فى شرعة المنصفين .

* * *

ولم يجدوا بداً فى النهاية من إقامة دولتين منفصلتين

إحداهما هندوسية والأخرى إسلامية تعرف باسم الباكستان. وينتقل من يشاء من أتباع إحدى الدولتين إلى بلاد الدولة الأخرى مع تنظيم الهجرة وتبادل السكان.

ولم يكن تنظيم الهجرة بالأمر الميسور. لأنه بمثابة اقتلاع ملايين من الأسر من أماكن قد استقرت فيها وارتبطت فيها بمعاملاتها وأسباب معيشتها، إلى أماكن أخرى لا تتسع لها في كثير من الأحيان، وليس هناك من يعوّض أحداً عن ماله المتروك في البلد الذي يهاجر منه، أو البلد الذي يهاجر إليه.

وما هو إلا أن أعلن قيام الدولتين حتى كانت مشكلة السكان هذه مثار الخصومات والفتن في كل بقعة يعيش فيها المسلمون مع الهندوسيين والسيخ منهم خاصة. وانطلق أناس من غلاة المتعصبين يطاردون المسلمين من مساكنهم ويعملون القتل والسلب فيهم، ويغيرون على المساجد فيلوثونها أو يهدمونها أو يحولونها إلى معابد هندية وينصبون فيها صورهم وأوثانهم، ولا يعترضهم أحد من الشرطة والجنود، بل يشاركونهم في هذه الجرائم، ويحرضونهم عليها، ويزودونهم بالسلاح الذي يعلم العارفون بالهند أنه كان محظوراً على جميع الهنود في عهد الدولة البريطانية. واقترف هؤلاء الغلاة من

الآثام والمجازر فى صيف تلك السنة (١٩٤٧) ما لعله لم يحدث قط فى هذا الزمن فى بلد من البلدان.

وكان على رأس المجرمين الذين فعلوا هذه الأفاعيل جماعة وطنية متهوسة تعرف باسم « مهاسابها » أو الجماعة الكبرى تتلخص مبادئها فى إقامة حكومة هندوسية واحدة والقضاء على حكومة الباكستان وتجنيد جميع الشبان ومطاردة المسلمين ومعاملتهم معاملة الجواسيس المهددين لأمن الدولة الهندوسية وتحريم الدخول فى الدين الإسلامى على أبناء النحل الدينية الأخرى.

وكانت هذه الجماعة لا تبالى فى نشراتها اليومية — وهى تحرض الغوغاء على القتل والسلب — أن تؤكد لهم علانية، معاونة الجيش والشرطة، وحمايتهم من الاعتقال والتحقيق.

وكان غاندى أشد أهل الهند نقمة على هذه الفتنة المخزية وجرت على لسانه كلمات يأس وشكاية لم تسمع منه قط فى أحلك أيام جهاده، فكان يقول لمن حوله: هذه أحوال لا تغرى بالعيش. ويسأل مع الشاعر: إلى متى أقيم فى هذه الدنيا ألعب هذه اللعبة؟ يعنى الحياة.

ولما أعرض المهيجون عن نصائحه المتكررة نذر الصيام حتى الموت أو تجاب مطالبه ويتحد المسئولون على العمل بها:

وهى كما نشرتها صحيفة نيويورك تيمس (فى يناير سنة ١٩٤٨) : السماح للمسلمين بإقامة احتفالهم السنوى فى معبد مهرولى القريب من دلهى ، وإعادة المساجد المختصة إليهم : وصيانة حياتهم وأموالهم ، والترحيب بعودتهم إلى مساكنهم وتأمينهم فى السفر ، والكف عن مقاطعتهم فى الحياة الاجتماعية .

ومضى فى صومه خمسة أيام ، ثم جاءه الزعماء وقادة الجماعات مستغفرين ، وقطعوا له العهد على قبول وصاياه جميعاً والعمل بها تواً ، فعدل عن صيامه ، واستطاع أن يتوجه إلى مهرولى ، ليشهد مع المسلمين مولد قطب الدين بختيار ، الذى احتفلوا به فى السابع والعشرين من شهر يناير ، وعاوده الرضى بعد ما انتابه فى الفترة الأخيرة من يأس قاتم ، وحزن أليم .

إلا أنها الفتنة قد جن جنونها وانقطع عنانها ، ونظرت إلى غاندى وهو يكبح شهوتها ، كما ينظر الوحش المهتاج إلى الحارس الذى يدفعه عن فريسته . إنه قد يدع فريسته إلى حين لينشب أظافره فى الحارس الذى حماها .

فى العشرين من شهر يناير ألقى طالب اسمه «مادان لال» قذيفة على غاندى لم تصبه . فلم يجفل ولم يرتجف منه عصب . ومضى إلى الصلاة وهو يوصى الشرطة ألا يعنفوا على «الصبى المسكين»

واتجهت الشبهة فى هذا الحادث إلى جماعة رياضية على النظم الفاشية ، تسمى جماعة المتطوعين لإنقاذ الوطن . ولكن التهمة لم تثبت عليها وظهر أن الجريمة من عمل متآمرين ينتمون إلى « المهاسابها » أو الجماعة الكبرى .

ولم يردعها إخفاق هذه المحاولة عن جريمتها التى بيتت النية عليها ، فعادت إلى الاقتراع بين أعضائها على من يتولاها وينجح فيها ، فكانت القرعة من نصيب فتى من محررى الصحيفة المتطرفة « هندوراشترا » يسمى : « ناثورام فينايالك جودس » . فتقبل القرعة متهللا ، لأنه كان من أشد المبغضين لغاندى ودعوته الإنسانية . وكان كثيراً ما يقول : « إن لى رسالة لابد من أدائها » .

وما نظن أن قاتلا ضريت نفسه بالشر كما ضريت نفس هذا التعس المفتون ، فحسبك نية القتل إذا كان القتيل هو غاندى ، تلك وحدها كافية . ولكنها لم تجمع كل ما فى طويته من ضراوة إبليسية . فقد تعمده بالقتل وهو فى موقف يثنى يد الشر ويخلق الضمير النادم لمن مات فيه الضمير . تعمده بالقتل وهو يسعى إلى الصلاة بين حفيدتين بريئتين ، وينظر إليه نظرة العطف الوديع التى يغمر بها كل من حيّاه .

كان غاندى فى يوم الجمعة (الثلاثين من شهر يناير) يتحدث

« بودس » قاتل غاندي

إلى السردار يائل فى شأن خطير ، فأخره الحديث عن موعد الصلاة . فلما كانت الساعة الخامسة والدقيقة العاشرة ، قال لمحدثه العظيم : الآن دعنى . . إنه موعد الصلاة .. وخرج بين حفيدتيه آفا ومانو ليؤدى صلاته فى معبد قريب . . فاقترب منه فتى فى سترة عاكية وصدار أخضر ، وهو يطوى ذراعيه على صدره علامة التحية الهندية ، وقال له : لقد تأخرت يا أبت . فتمتم غاندى مطرقاً كالمعتذر ، وهو يقول : نعم تأخرت يا بنى . وانحنى الفتى كأنما يهم بتقبيل قدميه ، فنظر إليه غاندى نظرته الوديعة وابتسم له فى رفق وممانعة ، وطوى ذراعيه على صدره رداً للتحية . فإذا بالفتى قد وثب واقفاً وفى يده أداة لا تكاد تنظر — مسدس بيريتا الصغير — وأطلق منه ثلاث رصاصات على صدر المهاتما على مدى ذراع . فهتف غاندى بالصلاة « آى رام . آى رام » . . وسقط إلى الأرض رافعاً يديه كما كان يرفعهما لمن يدعون له بالحياة .

ولم يعش بعدها غير ثمان وعشرين دقيقة ، ولم يفه بعدها بغير هذه الكلمات : « إذا كنتم لا تريدون أن أعيش . . فلا أرب لى فى العيش »

وظل القاتل كلما سئل بعد ذلك يضحك ويقول : لست بنادم .. ولست أجهل ما ينتظرنى .. ولكننى لا أبالى .. إننى

أقحمت إسمى على التاريخ بأحرف من نار . . .

صدق ا فما فى وسع التاريخ أن ينساه ، لأنه فى تاريخ بنى الإنسان كله إسمٌ وحيد .

وتم العجب من سيرة غاندى حياً وميتاً .

رجل رفع أبصار الناس إلى أوج السماء ، فهبط بها قاتله إلى قرارة الجحيم .

رجل وهب للهند حريتها ، فسلبته الهند حياته .

رجل أراد أن يمسح العدوان من ظهر الأرض ، فمات معتدى عليه .

جهان غاندى على شاطىء النهر المقدس — نهر « جنا »

هـــذا هو الإنســـان

وجمت حين سمعت النبأ (١).

وما أظن النبأ إذا قيل على إطلاقه محتاجاً إلى تفسير فما كان للكرة الأرضية من شاغل غيره فى زاوية من أقصى زواياها . لقد أوشك أن يكون حادثاً من حوادث الكون بما رحب ، بل كان حقاً حادثاً من حوادث الكون . لأنه على أوثق اتصال برسالة الروح .

وجمت وطال بى الوجوم ، بل ذهلت وطال بى الذهول . لأن الخبر إنما يمهد له خبر مثله ، ولأن الحادث إنما يقاس على نظيره ، ولا نعرف نظيراً لمصرع غاندى فى كل ماسمعنا به من أنباء العالم ، وفى كل ما عرفناه من حوادث التاريخ .

لقد قتل من قبل مصلحون وقديسون .

ولكنهم قتلوا بيد السلطة التى تخاف منهم على نفسها أو قتلوا بأيدى الطغام المهتاجين وهم يسفهون أحلامهم ويحطمون أصنامهم ، ويبدلون شعارهم ، ويدنسون مثابرهم فيثور الشر فى نفوسهم ، ويهجمون على القتل وهم لا يفقهون ولا يفيقون .

---

(١) نشرت غداة وصول النبأ بمصرع غاندى .

ولكن مصرعاً كمصرع غاندى لم يحدث قط فيما علمناه من حوادث التاريخ .

لم يحدث قط أن ترتفع يد بالشر إلى رجل لايسفه الأحلام ولا يبشر بغير السلام : رجل فى الثامنة والسبعين يسعى إلى الصلاة يتوكأ على حفيدتين بريئتين ، ويكف الشر فى النفوس بوقار سنه وضعف شيخوخته وطيبة سكينته واستسلامه . رجل يدين بما يدين به قاتله المتعصب لعقيدته . وقصارى ماتنتهى إليه تلك العقيدة ـ عند ذلك القاتل التعس ـ أن قتل البقرة حرام ، وأن قتل القديس العظيم مباح .

خارقة من خوارق الإثم تشده العقل وتشل الخيال ، فلا تدرى الأذن كيف تسمعها ، ولايدرى الحس كيف يحملها إلى رأس أو ضمير .

لقد خرج غاندى إلى البحر يتحدى « قانون الملح » المشهور ، وخرج وراءه ألوف من الرجال والنساء . وأمرهم أن يصبروا للضرب ولايضربوا ، وأن يتعرضوا للأذى ولايردوه بمثله . ثم لاح ذلك الشبح الهزيل للجند القائمين فى طريق البحر وهم صفوف من وراء صفوف ، فانفرجت صفوفهم له وتركوه يمضى فى سبيله ، ثم انطبقت من بعده على الجموع التى تبعته لتعمل فيها الضرب واللكم وتهوى عليها بالعصى والهراوات .

فإذا بقزم الجسد مارد الروح ، قد وقف عند البحر خاشع الرأس دامع العينين ، يبكي وحيداً لأنه سلم وحده ، وأصيبت من ورائه تلك الرؤوس والأجسام .

لقد مثل بين يدى القضاء فسأله قاضيه : أمذنب أنت بحكم القانون ؟ فقال : نعم مذنب ، وأعود إلى الذنب متى قدرت عليه . . فأحس القاضى إحساس المذنبين أمام هذا المتهم الذى لايحس إلا إحساس الشهداء . وقال قولته التى سيخلد بها فى سجل القضاة : إننى أحكم عليك مكرها ، وسأكون أول من يهنئك مبتهجاً ، إذا استخدم حاكم الهند حقه فى العفو عنك ، وهو حق لايملكه القضاء .

مستعمرو بلاده هابوه وبجلوه .

غاصبو وطنه أحجموا عن المساس به والقسوة عليه .

ويشاء النحس لذلك الوطن المنكوب ، أن يشتمل على مخلوق من أبنائه : مخلوق من أبناء البشر ، تتحرك يمينه بالقذيفة القاتلة إلى صدر لم يبق فيه مع الحب الشامل لبنى الإنسان — ولكل بنى الإنسان — غير جلود وعظام .

قيل منذ أيام أن قذيفة ألقيت على غاندى فنجا منها .

فوقع فى الأنفس أن نجاته من تلك القذيفة حدث من أحداث الطبيعة لاغرابة فيه . . كأن المادة نفسها تهاب أن

تمضى بالأذى إلى هيكل ذلك الروح .. كأن القذيفة ترتد ـ ولا تستطيع إلا أن ترتد وحدها ـ عن القداسة التى أخضعتها ، ولم تخضع لها قط فى تجارب الحياة .

فلما قيل إنه قتل بيد إنسان ، قد والله سألت : كيف تحركت عضلة فى جسد بشرى بضربة قاتلة لذلك الشهيد ؟

قد والله سألت عن اليد التى لا تعقل ، لأنها كانت خليقة أن تعجز عن الحراك إذا سيمت مثل هذا الحراك الذى يشذ عن كل قانون . . . ولم أسأل كيف سولت نفس ، ولا كيف هجس ضمير . . لأن من الهول الهائل أن يدخل مثل هذا الجرم فى حساب نفس أو ضمير .

وباسم الوطن وخدمته يقتل القاتل ويصاب الشهيد ! .

باسم الوطن وخدمته ، يعتدى أكبر مسىء إلى وطنه على أكبر محسن إلى ذلك الوطن المنكوب .

فليس فى العالم صديق للهند ولا عدو من أعدائها ، تخامره ذرة من الشك فى فظيعة من الفظائع يقدم عليها المتعصبون هناك ، إذا كان النهى عن التعصب ذنباً يستحق عليه مثل غاندى أن يحرم نصيبه من الحياة .

ومن غاندى الذى يحرم هذا النصيب الضئيل ؟

غاندى الذى تدين له الهند بأعظم الديون . .

غاندى الذى وهب الحرية للهند ، وصنع للهند مالم يصنعه هندى قط منذ خلقها الله .

غاندى الذى تفدى حياته بحياة الملايين ، لأن الإنسانية لا تزال مفتقرة إلى أمثاله ، ولو كان فيها من أمثاله ألوف . . فكيف بافتقارها إليه وهو واحد مفرد فى هذا الزمان .

كبر على الهند أن يظهر من أبنائها أشرف إنسان فى زمانه . فأبى عليها النحس ، إلا أن يظهر فيها أشأم إنسان فى كل زمان .

ومن يقتل شرف الإنسانية كلها إلا مخلوق يخجل من إنسانيته كل إنسان . بل كل حى من الأحياء ، وكل ضارية من ناهشات الأبدان ، وكل ساعية من نافثات السموم .

ويسألون : ألا جزاء يجزى به وراء الإعدام ؟

فما الإعدام فى جانب الوصمة الأبدية يحملها المسكين وحده فى تاريخ البشرية بأسرها ، فيذكر وحده إذا ذكر الخزى الذى لا خزى مثله فى طوايا التاريخ .

هذا هو الإنسان فى بؤرته السفلى .

وذاك هو الإنسان فى ذروته العليا .

وفى خشوع لا ينتهى ، نحيى الإنسان المشرّف للإنسانية .

وفى حياء لا ينتهى ، نزوى البصر عن خزى الإنسانية فى جميع تواريخها .

أعانها الله على كفارة تمهد بها العذر لنفسها ، بين يدى ضميرها ، وبين يدى كل حى من خلائق الحياة تحمله هذه الغبراء . . .

وبين يدى الله . . .

عظماء الهند ينتظرون جثمان غاندي
بهردار باتل ، وأبو الكلام آزاد ، والشاعرة نايدو ، ونهرو